فان سرتَ مثلاً الى شمال بيروت او الى غربيها ترى على مدى الساحل صخوراً قُطعت قطعاً أفقياً وهي توازي لسطح البحر وقت ركودهِ. انما هذه الصخور المسطَّحة قد قرضها البحر الماتح وقت اضطرابهِ فانهُ على توالي الاعصار تضرب امواجهُ عند النقطة الموازية لسطحهِ فلا يزال يقرضها شيئاً فشيئاً حتى يزيل قسم هذه الصخور المرتفع فوق هذا الخطّ

ولنا شاهد حسّي على هذا القول وذلك ما نراهُ في رأس بيروت في المحلّ المعروف بجزائر الحمام فكانت هذه الجزائر اولاً مواصلةً للبرّ فترى الامواج تعمل في سلف هذه الصخور عملَ المنشار فتنشرها كل يوم عند النقطة الموازية لسطح البحر فصار قسمٌ من الصخور المنخفضة مسطّح الشكل على مدار هذه الجزائر. ولا شكَّ انهُ بعد قرون قليلة ستصبح بتامها سطحاً متساوياً. فاذا كان كما يزعم العلماء دينز وروسكار وغيرهما قد انخفض الساحل لكنت ترى هذه الصخور تحت سطح الماء وهذا مخالف للواقع فينتج انَّ قرض الصخور دليل على عمل الامواج لا على انخفاض الساحل

هذا وانَّ جهتَي الساحل في جنوب بيروت وشماليّ شرقيها تنطق بلسان حالها عن ارتفاع ساحل المدينة لا عن هبوطهِ

والدليل على ذلك انهُ عند رأس نهر الكلب بقرب احدى الكتابات المرتفعة اليوم نحو عشرة امتار فوق سطح البحر قد اكتشف الدكتور روسيغر في صُلب الصخر ثقوباً مستديرة حفرتها ايدي البشر يليها صور أتاجر ورؤوس إشعاراً بانَّ في هذه الثقوب كانت تُربَط السُّفن في الاعصار الماضية لمّا كان سطح المياه اعلى ببلغ عارٍ هذه الثقوب. لكنَّ المقالع التي تستخرج منها اليوم الحجارة عند الكتابة اللاتينية الكبيرة قد ذهبت بكلّ هذه الآثار.

فيتّضح ممّا سلف انَّ ساحل بيروت لا يُستثنى من القوانين العامّة الجارية في عموم سواحل فينيقية وانَّ البراهين التي استند اليها البعض واهنة لا يُعتمد عليها. والله اعلم

المبارزة

للاب لويس معلوف اليسوعي

قد تعدَّدت في هذه السنين الاخيرة حوادث المبارزات الاوربية لا سيَّما بين بعض الاشراف ووجوه القوم فكان لوقعها صدًى في شرقنا العزيز حتى طنطنت لها الجرائد

المصرية وغيرها بيد انها لم تهتك بتر هذه العوائد السيئة التي هي اولى باعصار الهمجية منها بعصر التمدن فاحبَّ احد مراسلينا الافاضل ان يكتب في ذلك نبذة لتقليم اظفار هذه الفتنة وإرتاج باب هذه المدرى دون بلادنا فقال :

« ما من بلاء او داهية اشدّ إجحافاً بحسن إدارة شؤون الأمة وأقوى تحامُلاً على دكّ دعائم نظام الهيئة الاجتماعيَّة من أن يُخوِّل لكل فرد من افراد القوم أن ينتقم لنفسه بنفسه ويُدافع بسلطته الشخصيَّة عن حقوق له وشرف يتوهَّم انهُ قد مَسَّهُ عارٌ وهوان »

تلك اقوالٌ قضى بها نور العصر لارن الثالث عشر على جهالة فشا شرُّها في الاقطار الاوربية ردحاً من الزمن حتَّى أصبح بعض القوم وهم في سبيلها يعتدُّون اعظم الجرائم وأفحشها فعلاً حسناً ممدوحاً

لذلك حداني حبُّ الاوطان الى ان آتي ببعض القول في هذا المقام قصدَ أن اكشف القناع عن هذه العادة وشؤونها فيقدّرها القرّاء الكرام حق قدرها ولا يحكمون فيما يذكر من هذا القبيل في المجالس والجرائد إلَّا بما يستصوبهُ عقلهم السديد النيّر

تعريف المبارزة

المبارزة في عُرف الفلاسفة والمُشترعين هي قتال اثنين لداعٍ شخصيّ بعد التعاهد وباسلحةٍ كافيةٍ لقتل الخصم او جرحهِ جرحاً بليغاً . يتطاول مثلاً زيدٌ على عمرو في المقال ويرشقهُ بكلامٍ مؤلم مهين فيهيج في قلب عمرو هائج الأنفة والغيرة على شرفهِ وانتصاراً لهُ يدعو زيداً الى المبارزة ولسان حاله يقول : لا علاقة بيننا من الآن الَّا علاقة مهين بمهان فلا تقع العين منّا على العين الَّا في ساحة الطعان . اختر مكاناً ترضاهُ وها الأسلحة خذ منها ما تهواهُ ولتكن الدماء الحَكَم الوحيد بيننا . وعليهِ ترى انَّ المبارزة تكون لاغراض شخصيَّة عن قصدٍ واتفاق وتعاهد وبذلك يخرج عن موضوع كلامنا ما لم تجتمع فيهِ هذه الشروط . فان نتج مثلاً تطاعُن واقتتال عن مشاجرةٍ بغير قصدٍ سبق فلا يُحسب ذلك مبارزة في حصر المعنى . وكذا قل عن طعان الاثنين للانتصار للامّة او لحسم حرب من اقرب الاوجه وحقن دماء الجيوش . وقد اطلعتنا تواريخ الشعوب على شيء من ذلك كما فعل الهوراس والكورياس في حرب الرومان والسابين

اصل المُبارزة وتاريخها

المُبارزة على حدّ ما عرفناها لم يمهد لها اثر بين الاقدمين . بل اوَّلُ ما ظهرت في شمالي

اوربة بين القبائل الجرمانية اوان انقضاضهم على المملكة الرومانية . وكانت تلك القبائل شأنها الغارة والكفاح واهراق الدماء فما كانوا يقدّرون شيئاً كتقديرهم للتهالك والتهافت على كل مرواة . وكان حرصهم على الشرف شديداً يبذلون في الذبّ عنهُ الأعمار . وبذلك عرفهم الرومانيّون فكانوا يقولون عنهم : انَّ البربري (الجرماني) يخاف العار ولا يخاف المنية . وكان من عوائدهم ان كلاً ينتقم لنفسه بنفسه وان الخصومات والدعاوي اكثرها لم يكن يفصلها بينهم نصُّ السُّنّ او نظر القضاة . بل كانوا يُسرعون الى الاسلحة فيجعلونها بينهم حكماً معتدين عاقبة الطعان نباً علوياً ونُطقاً إلهياً يشير الى الحقّ والحقوق ويُظهر الظالم والمظلوم فمن غلب كان الحقّ لهُ ومن غُلب كان عليه

واضحت عادتهم هذه اصل المبارزة الشرعية وهي عبارة عن خطّة اتّخذها قضاة بعض الامم الاوربية في حسم المشاكل . فكان القاضي يُقيم امامهُ المُدّعي والمدّعى عليه ويضع في ايديهما سلاحاً ويأمرهما بالطعان فمن غلب حكم لهُ ومن غُلب حكم عليه

وقد انتشرت هذه الخطّة في القرون المتوسّطة واخذ القوم يعملون بها رغماً عن مقاومة الاكليروس واستباح المشترعين ولم يقلعوا عنها كل الإقلاع الّا في اواخر القرن السادس عشر وعن هذه المبارزة الشرعيّة صدرت المبارزة المألوفة عندهم في عصرنا

وذلك انَّ الرجال الذين كان دأبهم إقامة الحقوق بالتضارُب والاقتتال اضحوا على ممرّ الأيام يرتضون بان تقضي المحاكم الشرعية لهم وعليهم في الدعاوي المالية والخصومات المدنيّة . لكنهم لم يزالوا يدّعون لانفسهم حق النظر والحكم والانتقام في امور الشرف زاعمين ان انتقاصهُ واهتضام حقوقه ليس من الامور التي يتيسر للمحاكم الشرعية النظر المصيب فيها . وانَّ من هذا القبيل ما لا يمكن عرضهُ على القضاة دون ان يتكبّد كلا الطرفين ثقيل الضيم ومرّ الاذى . ولبثت الاخصام في هذه القضايا يتداعون الى الطعان كما عهدوا في المبارزة الشرعية

وفشا هذا الامر في أثناء القرن السادس عشر بين كبار القوم واقبلوا عليه ايّ اقبال فكانوا يتطاعنون لأوهى الدواعي وكثيرًا ما كانوا يندفعون في ساحات التبارز على سبيل الارتياض واللعب ولعمرك انها لم تكن العاباً بل ملحمات يتلحمون فيها التحاماً

على انهم كانوا يجرون في ذلك على قواعد وسنن معلومة يحافظون عليها كلّ المحافظة وانّ الشهود كانوا بادئ بدء يكتفون بحضور المبارزة ساعين بان تكون السنن مراعاةً

معمولاً بها من كلا الطرفين. غير انهم في النصف الاخير من القرن السادس عشر اخذ ينتصر كلٌّ لصاحبه ويناضل عنهُ فغدت المبارزة اشبه منها بمعركة تتفانى فيها ارواح العباد

فهاجت لذلك خواطر القوم وقضى كل العقلاء واصحاب النُّهى على هذا الامر الفظيع المنكر. بيد انهم لم يقووا على حسم الشر واستئصال شافتهِ من بين ظهرانيهم

وقد وصلت المبارزة الى آخر درجة من الفظاعة والاحتدام في عهد هنري الثالث وهنري الرابع ولويس الثالث عشر ملوك فرنسة. فكانت المدن بشوارعها يكاد لا يخلو فيها مكان من المتبارزين. ومما كان يزيد في الشرّ انَّ المتخاصمين اخذوا في تلك الازمنة يدسُّون لبعضهم الدسائس ويكمنون مكامنهم شأن اللصوص وقطّاع الطرق. بل كانوا في بعض الممالك يستخدمون الرجال ويعولونهم ويعدُّونهم لتلك المهمات. ولا يبعد عن مَنال تصورك ما وراء ذلك من الآفات وخيم العواقب. انهم بالمئات كانوا يُحصون عدد الذين يقضون في هذه المبارزات نحبهم غير مأسوف عليهم ولا يذكر يُحمدون

فلم تعتم اصحاب الامر والنهي ان تقدّر هذه الفواحش قدرها من الاضرار بالهيئة الاجتماعية والتطاول على حقوق السلطة الشرعية بل حقوق مبدع الحياة ورب الاعمار واخذوا يسنُّون السنن دفعاً لتلك الشرور وحقناً لدماء العباد

فنرى مثلاً في فرنسة شارل التاسع (سنة ١٥٦٩) وهنري الثالث (١٥٧٩) وهنري الرابع (١٦٠٢ و ١٦٠٩) ولويس الثالث عشر (١٦١١ و ١٦١٣) قد اصدروا في هذا الامر أحكاماً وتقريرات صارمة جداً لكنها لم تكن الّا التخويف ولم تُنفذ طبق المراد لما كانت الخواطر عليهِ من شدّة الانقياد لتيّار هذه العادة والتجمّل بمجاراتها. وكان الملك هنري الرابع تخالف افعالهُ سننهُ اذ انهُ كان هو نفسهُ لا يأبى احياناً مبارزة المتبارزين

ولكن لمّا وصل الامر الى ريشليو وتقلد منصب الوزارة اعار هذا الامر التفاتاً ساهراً واقبل على ما كان سُنّ ضد المبارزة من الشرائع فعمل بها ونفذها حقّ التنفيذ ولم يتأخر عن اصدار حكم الاعدام على البعض من اكابر القوم لمخالفتهم الاوامر. فقمع جموحهم وردعهم زمناً عن التبارز

واتى بعد ريشليو لويس الرابع عشر ولم يكن باقلّ منهُ عناية في هذا الصدد. وقد اصدر ضدّ المبارزة اوامر مشدّدة في سني ١٦٤٣ و ١٦٥١ و ١٦٧٠ و ١٦٧٩ و ١٧٠٤

و ١٧١١ . فتناقص عدد المتبارزين تناقصاً يُذكر بيد انَّ اوهام القوم واميالهم الى هذه العادة لم تُستأصل من القلوب عن آخرها . ولم ينقضِ لويس الرابع عشر نحبهُ الَّا وعادت المبارزات الى ما كانت عليهِ واخذ يزداد شرّها ويتفاقم الى الثورة الفرنسية التي رغماً عن اراء بعض اعضاء مجلس القوانين الاساسيَّة لم يُسنّ فيها سنن ضد المبارزة . ولا عجب

اما اذا نظرت الى مشترعي عصرنا فتجدهم لم يجاروا القوم على ارهامهم في الانتصار للشرف بالمبارزة بل قد نصُّوا فيهِ شرائع جمَّة وعيَّنوا اقسى العقوبات الرادعة . لكن كل عاقل يأسف على انها لم تأتِ بالمراد وكانها في بعض البلدان قد اصبحت نسياً منسيًّا

على ان عدد المتبارزين عموماً قد تناقص الآن في الاقطار الاوربية . لكنهُ يبقى هناك من فعالهم ما يكفي لرشق عصرنا بذمَّة يتبرأ منها التمدُّن وتعجُّها الاداب السليمة ويقضي عليها حاكم العقل المصيب

وما المبارزة في نظر العقل الَّا جناية ثنيلة جمعت بين جنايتين جناية من تعمُّد القتل وجناية من تعمُّد الافتخار وما فيهما من اثم وفظاعة فهو الى المبارزة يُنسب نسبةً صادقةً تامَّةً

بيان سوء المبارزة عقلاً ونقلاً

الناموس الطبيعي الذي وقَّ ربُّك مراسيمهُ على صفحات القلوب ينبئنا إنباء جليًّا بيّنًا بامرٍ لا ينكرهُ بشر ولا يتيسّر للعقل مهما اطال البحث وحاول التردد الَّا ان ينقاد ويستسلم لراهن حقيقته . ذلك لان الانسان ليس لهُ ان يتصرَّف في الاعمار كما يهوى ولم يطلق لهُ العنان في ان يتهافت الى المهالك او يجرّ اليها غيرهُ فيضرب لحياتهِ وحياة الناس حدًّا محدودًا لا تتعدَّاهُ ويقضي عليها ان تنتهي كيف ومتى شاء . انَّما الاعمار لمُبدعها والارواح لربّها ومالكها . هو الذي ضرب لكلٍّ اجلهُ وجعل لكل امدًا معلوماً عنده يسعى الانسان قبل حلوله سعيهُ ويجدُّ جدَّه في سبيل التحصل على السعادة الكاملة والقيام بما تفرض عليهِ طبيعتهُ الناطقة من الواجبات لربه ولذاتهِ وللهيئة الاجتماعية اجمالًا وافرادًا

فلم يترك ربُّك للعباد ان ينقصوا من آجالهم كما انَّهُ لم يمكنهم ان يزيدوا فيها شيئًا . اذًا ليس لهم ان يعرّضوا انفسهم او غيرهم لعوامل المنيَّة قصدًا واختيارًا اللهمَّ ان لم تضطرّهم لذلك فريضة عُليا او يَدعُهم الى بذل النفوس داعٍ كافٍ يستصوب معهُ ناقدُ العقل تجشُّم المخاطر واقتحامها

وما من فريضة او داعٍ راهن كافٍ يدعو المتبارز الى تحاملهِ على الطعان والاقتتال

قلت لان تعريض الانسان نفسه او نفس غيره للممات لا يحق في عين كل حكيم اعتبر ماهية الانسان وطبيعته الا لشروط ثلاثة. اولها ان يكون بذل الحياة حرصاً على خير افضل منها او على الاقل يعادلها قدراً. ثانيها ان لا يكون لصيانة هذا الخير الموازي للحياة سبيل آخر سوى بذل الحياة او تعريضها للممات اي ان يكون الاقتتال هو الوسيلة الوحيدة لذلك. وثالثها ان لا يكون حق الانسان في هذا الخير وصيانته يناقضهُ حق اعلى فيسخهُ ويزيله

والحال ان في المبارزة التي يعمد اليها الانسان لإزالة العار وصيانة الشرف لا تجتمع وعمرك هذه الشروط الثلاثة ابداً

ان اعتبرنا صانك الله ان الشريف هو من تنزَّه عما يشين العِرض واتصف بالصفات الحسنة الكريمة لا من حصل ثناء أساطة القوم اذ حسُنت فعله في اعين اصحاب الاهواء والاغراض والاوهام وان ذكَّرتَ فهمك المصيب ان الشرف الصادق يقوم على الفعال لا على الاحاديث والاقوال يرَ عقلك مرأى العين ان سفك الدماء لأوهى واسطة واعجز وسيلة تتخذ لتبيان الشرف وإجلاء الوصمة عنهُ وايراد الدليل على بهتان وافتراء مَن تحامل عليه ظلماً وزوراً

ما سفك الدماء إلَّا سفك دماء. لا يكشف عن ظلم ولا يُظهر كذباً ولا يفصل بين صواب وبُهتان ولا يبدي ادنى دليل عمَّن هو النبيّ وعمَّن هو الفضيل بل عن قوَّة الذراع ومهارته وطول مراسه للسلاح لا غير. ومتى عُهدت رشاقة الحركات والمهارة في تقليب السيوف والسهام دليلاً مقنعاً على فضل الانسان وشرفه في أعين قوم يعتاون ثم اذا تكاثرت اللصوص وقطَّاع الطرق احق القوم ادّعاء بالشرف واجدرهم تقرّباً من رُتب الفخار ومناصب الشرف

وان اعترض عليَّ معترض بان المبارزة ليس القصد منها الاستدلال على الشرف بل الانتقام لهُ اجبتُ اوَّلاً انَّ الانتقام لتحقوق في الهيئة الاجتماعية تختصّ به السلطة العامّة لا الافراد والَّا لطمت المظالم وتضعضعت اركان العدل وذهب كل أمن وسلم من بين الناس. — واجبت ثانياً انَّ المبارزة تعاكس كلَّ المعاكسة جوهر الانتصار لتحقوق وذلك بيّن يكاد لا يحتاج الى زيادة برهان. لانهُ متى ثبت حقّ انسان على انسان ووجب الانتصاف اقتضى العدل ان يبقى الحقّ محقاً والمحقوق محقوقاً. أن ينتصر للحق من المحقوق.

أن يعاقب الحقوق وحده . ان لا يعادل بين الحق والحقوق في التغريم او العقاب . والمبارزة تعادل بين الطرفين وتساوي بين الحق والحقوق . تضع في ايديهما سلاحاً واحداً وتعرضهما لخطر واحد وتكون الدائرة لا على من تعدّى وظلم بل على من خانهُ الحظ او فاتتهُ المهارة تغلب . وهو امر لعمرُك تستغربهُ العقول

وهَب انَّ المبارزة واسطة ملائمة ناجعة للتخلُّص من العار ودفع الهوان لكنها ليست الواسطة الوحيدة فيجب اذًا العدول عنها الى ما سواها : أجل لا استزال المفتري الى ساحة البراز لازمٌ فان هناك طرقًا شتَّى تمكّن الانسان من تبرئة نفسهِ واظهار فضلهِ على انَّ شرفه اعلى واثبت واثره من ان يحطّ بهِ تطاول المتطاولين شيئًا عند اولي الالباب السديدة واصحاب الافهام السليمة . وعليهم المعوَّل . — ولا قبول المبارزة متى عُرضت واجبٌ لانَّ رفضها يُعلي مقام الانسان ولا يضع منهُ . يُعلي شأن الانسان ويرفع مقامه ان يستنير بانوار العقل غير منقاد للاهواء والاوهام وألاَّ يأتي امرًا يقضي عليهِ الناموس الالهي والناموس الطبيعي بل يكون شديد الحرص على شرائع العدل وما تقتضيهِ صوالح الامة ويحتقر طلب من يدعوهُ الى ارتكاب المحرَّمات وليس في ذلك من امر يدلّ على جبن وضعف جنان . وزد على ذلك انَّ للمرء ظُروفًا جمَّة يستطيع ان يظهر فيها عارَ همتهِ ومتانة قلبهِ وبسالته واندفاعه الى تكبُّد الاخطار واقتحام الاهوال عند ما يدعو اليها لا وهمٌ من فارغ الاوهام بل داعي الانصاف والعدل والتفاني في سبل الهدى

ويُظهر نفيَ المبارزة ايضًا أنها تختلس حقوقًا سامية حقوق الهيئة الاجتماعية وتجحف بها اجحافًا بيّنًا وذلك ما نبَّه اليهِ قداسة لاون الثالث عشر في الاقوال التي ذكرتها في بدء الكلام

للهيئة الاجتماعية حق راهن طبيعي واجب الَّا يدخل فيها اسباب فساد ودواعي اختلال واضطراب فتصبح فيها اركان السِّلم هدفًا مستهدفًا وعُرضةً لكلّ الاخطار . وهذا الحق هو لاشكَّ اقوى من حق الافراد على خير لهم زمني ماذي ايًّا كان . والمبارزة في عين كل من اعتبرها عبرةَ متبصِّر هي لا ريب مُخلَّة بهذا الحق مفسدة لهُ . والبرهان الذي لا ردَّ عليهِ في ذلك ان اصحاب الشرع في كل الامم المتمدنة ولاسيما في عصرنا قد صرحوا بذلك تصريحًا بيّنًا اذ نصُّوا ضدّ المبارزة السنن العديدة حينًا بعد حين كما سرَّ بك . وقد سنَّت بلجيكة احكامًا في ذلك سنة ١٨٤١ وقررت عقوبات معلومة عليها سنة ١٨٦٧

وكذلك وضعت المانية قانوناً لعقاب المبارزة سنة ١٨٧٦ واسبانية سنة ١٨٧٠ ثم ١٨٧٦ وهولاندة سنة ١٨٨١ والبرتوغال سنة ١٨٨٦ وايطالية سنة ١٨٨٩ والروسية والدانمرك سنة ١٨٦٦ والنروج من سنة ١٨٤٢ . والولايات المتحدة واغلب جمهوريات اميركة المتوسطة والجنوبية واليابان شرائع تطالعك ان المبارزة أدرجت في عداد اعظم الجنايات وعينوا لها العقوبات الشديدة لا ضدّ من باشرها فقط بل وضدّ من حضرها شاهداً ومن عرضها او سبّبها من اي وجه كان

وها كنيسة الله التي لم تزل ولن تزال ساهرة على الحقائق منتصرة للعدل مدافعة عن حسن الاخلاق وراحة العباد لم تبح تقرع المتبارزين وتردعهم عن شططهم: فانّ المجمع التريدنتيني قد حكم حكماً شديداً على كلّ من باشر مبارزةً او اشترك في امرها اشتراكاً ما وقضى على المتبارزين بالشَّين والعار مستقبحاً فعلهم مستذلاً عادتهم وقرّر طردهم من حضن الكنيسة اذ أمر بان قُتل في هذه الطاعنات ألّا يُدفن في المدافن الكنسية المقدّسة. ثم اتى بندكتوس الرابع عشر على تقرير المجمع المذكور وشرحهُ وعزّزه. وعقبهُ بيوس التاسع فاعلن ان العقوبات الكنسية التي قُرّرت سابقاً تطلق لا على المتبارزين فقط بل وعلى الشهود انفسهم. واطال بنا المقال لو ذكرنا لك كل ذلك مفصلاً فلتكفنا الاشارة

ولنا في تلك النصوص المدنية والكنسية اقوى تقرير وامتن تأييد للادلة العقلية التي اوردناها

ولكلّ حكيم ان يتمنّى لعصرنا عصر التمدّن والنور الذي يتباهى على الاعصر الغابرة بتهذيب الاخلاق وتدميث الطباع ان يعدل عن خطة توارثها القوم عن امم برابرة ويصبح وهو لا ينظر اليها الّا كما ينظر الى ما ساء من عوائد ومألوفات السلف بعين الازدراء والاستغراب

كتاب النبات والشجر

للاصمعي

سعى بنشره وتصحيحهِ الدكتور اوغست هَفْنر

قد نشرنا في العدد الاوّل من المشرق (ص ٢٤ — ٣٢) كتاباً صغيراً للاصمعيّ